صورة المغربي

في رويات موريس لوغلاي

محمد الداهي

1- ملاحظات أولية

أ-اعتمد جون مارك مورى Jean-Marc Moura ، في تحديد هوية الأدب الاستعماري الذي بلغ أوجه في القرن التاسع عشر، على المعيارين الأسلوبي (النزوع إلى الواقعية) والإيديولوجي(مساندة الاستعمار)(1). فعلاوة على أن هذا النوع من الأدب قد يوحي بإيحاءات سلبية (الدفاع عن الأطروحة الاستعمارية والواقعية الفجة)، فهو، من جهة ثانية، يعمق البون بين الغرب باعتباره بؤرة النفوذ وبين الشرق بوصفه محيطا هامشيا وتابعا للمركز.

ب-يتعذر على الباحث إيجاد مؤلفات الأدب الاستعماري في المكتبات والخزانات أو على شبكة الانترنيت، وذلك لكونها لم تطبع من جديد لعوامل عديدة يأتي في مقدمتها عامل " نفاد قيمتها الدلالية" التي ارتبطت، في وعي القراء والنقاد على حد سواء، بالفترة الاستعمارية. وهذا ما يقتضي تفادي مثل هذه الأحكام المسبقة لمعاودة مساءلة هذه المؤلفات في ضوء أسئلة ومقاربات جديدة قد تسعف على استكشاف مضمراتها ومقاصدها وتعرُّف مميزاتها وسماتها الفنية. وفي هذا الصدد لما نعود إلى الكتابة الاستعمارية التي تمت بصلة إلى المغرب، نجدها متنوعة (الرحلة والرواية والسيرة والسيرة الذاتية..) وموجهة إلى جمهور محدد (على نحو الرواية الشعبية والرواية البوليسية والرواية التاريخية) ومنسجمة مع أغراض مؤلفيها ومقاصدهم (رحالة ودبلوماسيون وجنود ومكتشفون ومكلفون ببعثات علمية أو دينية).

ج- أحدثت الإدارة الاستعمارية بالمغرب سنة 1925 الجائزة الكبرى للأدب الاستعماري لحفز الكتاب على مراعاة " المصالح والقيم الجديدة" للمعمر. وهذا ما يبين أنه لم تكن تراعي في العمل قيمته الأدبية والفنية وإنما مدى استجابته للأهداف الاستعمارية ومساعيها. وبما أن هذا النوع من الأدب يكرس النفوذ الاستعماري بالمغرب، فقد حفز الأهالي على الانخراط في الكتابة باللغتين العربية

والفرنسية للتعبير عن مواقفهم من المعمر، والمطالبة باستقلال المغرب وحفاظه عن مقوماته وهويته (نذكر على سبيل المثال عبد المجيد بنجلون وإدريس الشرايبي وأحمد الصفريوي).

د- يزعم رواد الأدب الاستعماري أنهم- بحكم ولادتهم في المغرب وعيشهم فيه مدة طويلة- أقدر من بني جلدتهم على فهم نفسية المغربي والتعبير عن تطلعاته وأهوائه. ويضع النقاد تمييزا دقيقا بين الأدبين الاستعماري والغرائبي. ومن بين ما يميزهما كون الأدب الاستعماري يتسم ب" الاختراق النفسي" والقدرة على النفاذ إلى نفسية الأهالي ووصف عاداتهم وسماتهم. في حين يستعير الأدب الغرائبي، بحكم أن أصحابه مجرد سياح، مواد أوروبية (المشاعر والاستيهامات والحنين) لوصف ما عاينوه في بلد أجنبي(2).

هـــ توحي عبارة الأدب الاستعماري لدى العرب قاطبة بمعنى قدحي، وذلك لكونها تذكرهم بأساليب العسف والحيف لاستيطان ديارهم، وغصب حقوقهم وسيادتهم، واستغلال خيراتهم. في حين يستعملها رواد الأدب الاستعماري لإبراز مساعي المعمر لإعمار الأراضي المستمعرة واستثمارها على الوجه الأحسن، وتحسين نمط عيش السكان وتطوير أسلوبهم في التفكير والتدبير.

2- دواعي اختيار موريس لوغلاي:

يعد موريس لوغلاي من المتحمسين للسياسة الاستعمارية عملا وكتابة. كان من بين الجنود الذين شاركوا في حملة مونيي Moinier لإبعاد مدينة فاس عن القبائل البربرية قبل معاهدة الحماية، ودافع عن الظهير البربري سنة 1930 سعيا إلى ترسيخ السياسة القبلية والعرقية وإلى إحداث البلبلة والتفرقة بين السكان المغاربة، وتحمل مهمة مراقب مدني، وأنشأ أول مركز لشؤون الأهالي بالحاجب، واقترح برنامجا بيداغوجيا لكسب ود البرابرة والحيلولة دون مواجهتهم للمعمر. ولهذا الغرض بنى المدارس في المناطق البربرية (خاصة في الأطلسين الصغير والكبير) لتعزيز التفرقة بين البرابرة والعرب وتيسير عمليات التمسيح والتنصير(3)، وأرسل إليها جنودا متطوعين لتلقين الأطفال الأفكار والمزاعم الاستعمارية باللغة الفرنسية.

وبالمقابل يعتبر موريس لوغلاي من الروائيين الذين انتزعوا جوائز تقديرية تنويها بتمثلهم لمعايير الأدب الاستعماري والدعاية له، وأغنوه بغزير إنتاجهم الروائي. ومن أعمال موريس لوغلاي نذكر ما يلي: يطو، قصة مغربية بين الحب والمعركة(4)، مسالك الحرب والحب، قصة مغربية(5)، القط ذو الأذنين المثقوبين، قصة مغربية(6)، بادا الفتاة البربرية وقصص مغربية أخرى(7)(الجائزة الكبرى للأدب

الاستعماري سنة 1922)، موت الروكي، قصة مغربية(8)، قصص السهل والجبال (9) (الجائزة الكبرى للأدب الاستعماري سنة 1922)، الرعاة(10).

3- الخطاب المقدماتي :

تتوجه المقدمة إلى الجمهور الذي سيقتني افتراضا الكتاب. ويكمن الهدف الأساس للمُقدِّم في توفير الشروط التي ينبغي أن تُستوفى حتى تُجنى الفائدة من قراءة مقدمته، أي أن يحفز القارئ على الانتقال من قاعدة الجمهور المجرد إلى منزلة قارئ ملموس. وبمعنى آخر يصرح الكاتب في التصدير بقواعد حقيقية للقراءة."فارضا علينا، بذلك، نظاما محددا من القراءة"(11). ومن خلال التوطئة التي صدر بها موريس لوغلاي روايته" **يطو**" يتضح مدى حرصه على الانضباط للنوايا الاستعمارية ومراميها. ولأخذ فكرة مجملة عن هذا التصدير على إيجازه وكثافته، يمكن أن نستدل بهذه المقتطفات:

-" من المناسب سبر القدرات التي يستضمرها المد البربري حتى نستثمرها إن تبينت فائدتها" صII.

-" يُجلّي التخييل، اعتمادا على صنف المرأة، الدور الذي يمكن أن تلعبه مثل هذه القوى في المستقبل تحت إمرتنا" الصفحة نفسها.

-" أردت أن أبين بالضبط قدراتنا الفرنسية الخاصة وإبرازها من خلال ما اضطلع به مواطنونا من جهود وهم، خاصة ربابنتنا، يحاربون من السهل إلى قمم الجبال لبسط نفوذهم على سلسلة الأطلس. ومما نجم عن ذلك أن المجد حفر اسم كل بطل على حدة فوق صخور جبال البرابرة الوعرة. كنت أفكر لأجل هؤلاء وقوادهم، عندما شرعت في كتابة هذه القصة بعين المكان أي في معسكرهم" صIII.

ومن خلالها يتضح ما يلي:

أ- أن موريس لوغلاي يترع، قبل صدور الظهير البربري بسنوات، إلى إستمالة البرابرة وتمييزهم عن العرب بهدف الاستفادة من طاقاتهم ومؤهلاتهم، عند الضرورة والاقتضاء، لتعزيز الوجود الفرنسي في المغرب.

ب- سعى إلى إثبات مفاخر الجنود الفرنسيين وأمجادهم وهم يتحملون مشاق الجبال ووعورتها سعيا إلى وضع الراية الفرنسية فوق قمم جبال الأطلس الشامخة وعربونا على قوتهم وتحكمهم في كل المناطق التي يتوخونها مهما كان بعدها وارتفاعها ووعورتها وقسوتها. وفي السياق نفسه أراد الكاتب أن يجسد دوره البطولي وهو يسجل في الوغى مفاخر بني جلدته وجنسه.

ج- أسند الروائي دور البطولة إلى امرأة بربرية مبينا الفوائد التي يمكن أن تجنيها فرنسا من بعض أصناف الأهالي التي تنشط وتعمل تحت إمرتها ونفوذها.

يطلب موريس لوغلاي من القارئ عدم البحث عن علم التاريخ فيما كتبه، ويحرضه على إيجاد دفقات القلب بين ثنايا السطور. وفيما يلي بعض المقتطفات التي وردت في تصدير رواية "**مسالك الحرب والحب**"، والتي تبين الغاية من تجسيد هذه الأفكار في القصة.

-"إن هذه الفكرة، التي أتمنى أن تخترق كل أعمالي، تكمن في تمجيد سلالتي على نحو ما فعله مثلا كبلينغ Kipling مع سلالته"VI.

-"إن مثل هذه المواضيع تقدم لنا مشهد شعب يتمتع بقدرات فائقة على خوض الحروب، لكنه مازال يتبع تقاليد فوضوية. إنه شعب متحمس لمقاومة عاتية يقودها قائد يعد بالنسبة لنا خصما شرسا، أنه محمد بن حمو (موحى وحمو)"VII.

-" أهدي هذا الكتاب المتواضع لروح رفاقي في جيش أفريقيا الذين سقطوا بأعداد كبيرة في المسالك الموحشة لأرض زيان، كما أستحضر روح الجنرال الشجاع والطيب وناشر السلم في الأطلس المتوسط بويميرو (Poeymirau) الذي أعدم، والذي كانت لي معه حوارات مسترسلة في خضم تقدمه البطيء والحذر والناجح وسط المغرب"VIII.

ويمكن أن تستنتج من هذه المقتطفات ما يلي:

أ- من بين الدوافع التي حفزت موريس لوغلاي على كتابة الرواية نذكر أساسا رغبته في الدعاية لتفوق العرق الفرنسي على مثيله المغربي، والإشادة به وتمجيده.

ب- سعى إلى استحضار لحظات حاسمة من تاريخ فرنسا في المغرب لبيان ما أدته الجيوش الفرنسية من ثمن وهي تواجه مقاومة " شرسة" و" عنيفة" و" متوحشة". وهذا ما جعله في أكثر من مرة يشيد ب" الملحمة الاستعمارية".

ج- يهدي الرواية إلى الجنود والقواد الفرنسيين الذين استرخصوا أرواحهم في سبيل نشر الأفكار الاستعمارية في المغرب وترسيخها في أذهان الأهالي ولو باستعمال القوة والعنف.

4- القط ذو الأذنين المخرومين(12):

يخبرنا السارد (المتباين حكائيا) (13)، في البداية، بموت ضابط المشاة الملازم الأول دولا تور سانت إيف(M.de la Tour Saint-Yves) متأثرا بجروحه، ويترك لدى خادمه يوسف مخطوطا يحكي فيه المرحلة الأولى من سفره إلى المغرب. اضطر إلى إدخال تعديلات على ما حبره حتى يغدو "سلسا ومتماسكا"ص12. وما توخاه الضابط (السارد المثماثل حكائيا) (14) منه – علاوة على إعادة الاعتبار

إلى الصداقة الحميمة التي كانت تجمعه بدوبون (Dupont)- هو الاهتمام بطباع الناس ونمط عيشهم عوض العناية بوصف ما تلتقطه العين. وهذا ما جعل السارد—الذي تكلف بجمع مواد المخطوط والتعريف بها-يؤاخذه عدم ذكر اللقلاق الذي يعتبر عنصرا هاما في المشهد المغربي.

تمثل المُسوَّدَة أثرا ماديا هاما لاستحضار روح دولا تور وروح أمثاله الذين لقوا المصير نفسه من جراء دفاعهم عن المثال أو النموذج الفرنسي. تطلعنا على مجيء الضابط في مهمة عسكرية إلى المغرب سعيا إلى البحث عن الصورة التي احتفرت في مخيلته عنه. ومما أسعفه على التغلغل في نفسية المغربي وطبعه هو تمكنه من الثقافة العربية إثر استقراره مدة طويلة في القاهرة لإتمام دراساته في مجال الاستشراق. ويفصح في مستهل مخطوطه عن الاعتبارين اللذين تحكما في مشروعه الحكائي، وهما : إفادة من يرغب في تعزيز معارفه حول اختلاط الأجناس والعادات والثقافات، واستخلاص العبر من ذلك الاختلاط الذي يقوض أي نموذج أيا كان نوعه،و يعوق أي تعلق بالآخر، ويستأصل المحبة من منابتها. ومما جعله يمتعض من الاختلاط هو أنه كان، في نظره، سببا رئيسا في مأساة صديقه دوبون ومأساته شخصيا بحكم أنهما متشبعان بالقيم الفرنسية ومدافعان عنها.

يوجه السارد/ الضابط مشروعه الحكائي إلى مسرود له مفترض (الصديق العزيز) لمكاشفته بالموت الغريب لصديقهما دوبون. وبما أنه كان يكتب استجابة لهذا الطلب ووفاء لروح الفقيد فقد حرص على تقديم تفاصيل علاقته به في مدينة الرباط (عاداته و مزاجه و مواقفه). كان يتفقده، بين الفينة والأخرى، في مترله، ويضطلع بسرد ما راج بينهما وتصيُّد شوارد الأمور رغم بساطتها وتفاهتها. واستمرت العلاقة بينهما إلى أن اختفي يوما عن الأنظار، وهو ما حفزه على مراسلة أخيه ليكون على بيِّنه من أمره. وعثر على جثته الهامدة والمهشمة بين الصخور بعدما انحسرت مياه البحر إبان فترة المد. وما يعزز فرضية قتله هو العبث بأثاث مترله وسرقة لوحاته الفنية.

ولما كلف الضابط بقيادة كتيبة في هضبة " مريرت"تعرض إلى المصير نفسه. اخترقت رصاصات الجنود المغاربة جسمه وجسم خادمه. ولما كان يحتضر طلب من يوسف أن يرتل على مسامعه سورا من الكتاب المقدس لطلب العون من الله. و لم يجد يوسف في جيب سيده إلا كتابا صغيرا، فقرأ مقطعا وقعت عليه عيناه صدفة. ويتعلق هذا المقطع بشجاعة وصمود جين (يحيل إلى جين دارك Jeanne d'arc) رغم تلقيها ضربة حادة ومميتة على كتفها. ومجرد أن فرغ يوسف من تلاوة المقطع لاحظ أن سيده أصبح جثة هامدة.

من خلال أطوار الحكاية نستنتج ما يلي:

أ-يتفق الضابط وصديقه دوبون على خصيصة جوهرية، وهي إطراء الجنس الفرنسي ومقت المغاربة بدعوى طبعهم العدواني والحربي. وفي هذا الصدد يقارن السارد بين مزايا الجنسين مبينا مزايا الفرنسيين (الإفراط في العمل، والحرص على التحصيل العلمي، والتعامل بلطف مع الآخرين) ومثالب المغاربة (الكسل والتقاعس والجهل). ومن جراء الاستغراق في هذه المقارنات نزع السارد إلى الوصف الإثنوغرافي للسخرية والتهكم من طريقة أكل المغاربة وعاداتهم الاجتماعية وطقوسهم الدينية. " بيد واحدة يهشمون اللحم الساخن، وينهشون الدجاج، ويحملون بأصابعهم أطرافا منه إلى أفواههم. إنهم لا يستعملون السكين والشوكة وهو ما يجعل المرء يشمئز من طريقة أكلهم" ص124. "يتناولون الوجبات باليد اليمنى في حين تسند إلى اليسرى الأغراض القذرة" ص 124. ولا يتفوق المغاربة عن الجنس الأثير لدى السارد إلا في خاصية واحدة يعرضها بسخرية لاذعة. " لا يتفوقون علينا إلا بالجهر بانتمائهم الديني وإعلائهم من شأن فقهائهم" ص 84.

ب-ينعت السارد المغاربة بالمتمردين لكونهم يتصدون إلى المساعي الفرنسية التي تراهن على إنشاء" إمبراطورية بشمال إفريقيا"، وترسيخ " القيم الفرنسية" في نفوس المغاربة حتى يستسيغوا الوجود الفرنسي بين ظهرانيهم، وينسلخوا عن هويتهم الدينية ومقوماتهم الحضارية. ويوظف السارد شخصيات مغربية(على نحوسي عبد الكبير وسيدي الجميل) لبيان مدى اقتناع المغاربة بالسياسة الفرنسية في المغرب. تصدع الشخصية الأولى بمناصرتها للمساعي الفرنسية بالمغرب وتشبثها بها. "يحدثني سي عبد الكريم عن مدى تشبثه بالقضية الفرنسية" ص95. ورغم تمسك سيدي الجميل بالعادات والتقاليد العربية العريقة، فهو معجب بما حملته فرنسا للمغاربة. " إن فرنسا التي تحضننا وتربينا كأم حنون حملت إلى المسلمين التقدم، التقدم، التقدم الأعز" ص89. وإذا كان السارد/ الضابط، في البداية، يستخف بالقدرات الدفاعية للمغاربة رغم طبعهم العدواني، فهو يقر، في الأخير، بما يخالف ذلك بعدما فوجئ بشراسة مقاومتهم وذودهم عن وطنهم " واعجباه من بلد! واعجباه من جنس غير مروض! " ص235. " أي شعب هذا؟ أرأيتم بربريا عاريا وطليقا لكنه- بفضل حس حربي فطري يحثه على ممارسة التكتيك والاستتار- يثب نحوك متأبطا بندقية" ص236. ويرجع السارد/الضابط تحسن قدراتهم الدفاعية إلى مساعدة الألمان لهم. وهكذا نعت من يجاري عبد المالك بالخونة لكونهم امتلكوا أسلحة ومفرقعات وقنابل لزرع الرعب في نفوس الفرنسيين وتخريب المنجزات التي يفخرون بإخراجها إلى حيز الوجود (على نحو إتلاف السكك الحديدية و تفجير القناطر).

ج- رغم ما تتضمنه الرواية من أحكام قيمية مستبشعة إزاء المغاربة، فهي، في نظري، تعتبر من رواياته المتميزة لاحتفائه بالجوانب والخاصيات الفنية. اشتغل على السرد (السرد داخل السرد، الإرصاد المرآتي، تداخل المستويات السردية)، واستثمر النصوص الواصفة لمعاودة مساءلة المادة الحكائية نفسها ووظيفتها، ووظف الرمز والإيحاء لإبراز قيمة أسطورة جين دارك في نفوس المحاربين الفرنسيين ووجدانهم من جهة و بيان مدى فقدان المعمرين ثقتهم بأنفسهم وإصابتهم برهاب نغص عليهم العيش في المغرب من جهة ثانية. وفي هذا الصدد نشير إلى إيحائية عبارة العنوان الذي ذكرت عرضا في سياقات محدودة في الرواية. فأينما حل وارتحل السارد يشعر أن قطا أصفر يقتفي أثر ويلاحقه في منامه ويقظته. " اعتقدت في البداية أنه فأر أو قط ضخم يتسلل داخل سريري، وينساب من أخمص قدمي حتى أذني" ص 150. "لم أحلم بالقط الأصفر وإنما بلحدي هناك " ص233. " كنت مهووسا مدة طويلة برؤية القط الأصفر بالقرب من قوائم سريري. إنه قط قذر يرتدي عباءة (فراجية) بيضاء ويحرك السكر في البراد بملعقة" ص.35

5- رواية يطو(15).

تتمحور أحداث الرواية حول شخصية يطو بنت موحاند الذي أصبح—بعد وفاة القطب الصوفي سيدي على أمهاوش-قائد القبيلة ومصلحها الديني. رفض موحاند زواج ابنته بميلود لكونه يتعاطف مع المعمر الفرنسي. وبعد وفاة زوجها في غارة حربية تزوجت ميلود وقررت الفرار معه إلى المناطق الخاضعة للوجود الفرنسي لأنها — حسب السارد- تتمتع بالسكينة والدعة والطمأنينة. اعترضت قوات موحاند سبيلهما فقتلت ميلود وأخته في حين نجا طفلها بأعجوبة وأصيبت يطو بجروح خطيرة. بعد أن عذبتها قوات موحاند أيما تعذيب تكلفت يامنة (إحدى زوجات موحاند) بتعذيبها وسجنها. ولما وقع أحد الضباط الفرنسيين، الذي كان يتفقد بمعية ربان آخر منطقة تيدكلت Tidiklet وتصوريها لأغراض عسكرية وحربية، رهينة في يد قوات موحاند وضع في السجن نفسه الذي توجد فيه يطو وذلك لذر الملح في جراحها وإهانتها وإذلالها. لكنها، بحكم إتقانها للغة الفرنسية وميلها للفرنسيين، استطاعت أن تتعاطف معه وتحدب عليه. وهذا ما زاد من حنق موحاند وغيظه، ولم يغمض له جفن إلا بعد أن أعدمها.

نستنتج من الرواية ما يلي:

أ- من خلال السرد نلاحظ أننا أمام طرفين متناقضين يتجاذبان ويتصارعان فيما بينهما: هناك الأب موحاند من جهة وابنته يطو من جهة ثانية. يمثل الأب، المنحدر من قبيلة أيت يحيا البربرية،

السلطة الدينية والقبلية. فهو يحرص أيما حرص على تعزيزها لضمان نفوذه المادي والرمزي والحيلولة دون وصول الفرنسيين إلى المناطق الخاضعة له."إنه بربري وفخور بعرقه ومحب لبلده المتوحش المهووس بالحرية" ص31. في حين تمثل يطو القوة المتمردة على والدها لكونها تمتعض من العنف الأبيسي والتقاليد القبلية المتوارثة، وتسعى إلى العيش في وسط مغاير (الوسط الفرنسي) يشيد بجمالها، وينوه بأعمالها وبطولتها، ويمنحها الاعتبار الذي تستحقه.

ب- إن كان السارد، من حيث وظيفته وطبيعته، مشاركا في الأحداث، فهو يتحيز من خلال الأوصاف التي يوظفها إلى طرف دون آخر. فهو يصف المغاربة بالمتوحشين، وينعت الوضع الذي تعيش فيه يطو بالفظيع والمخزي، ويعلي من شأن الفرنسيين لكونهم- في نظره- ينتمون إلى "الجنس القوي". في حين يعتبر يطو متمردة على التقاليد البالية، وعاشقة للحرية والسلام، وواعية بالمساعي والمطامح الحقيقية للفرنسيين في المغرب.

ج- وظف السارد شخصية يطو لإبراز مدى إمكانية الاعتماد على بعض القوى (وخاصة البرابرة) لتعزيز الوجود الفرنسي في الجبال والحد من انتشار الدين الإسلامي في السهول. وهكذا استثمر موضوع الهروب لاستجلاء المفارقة بين وسطين اجتماعيين (وسط تقليدي منغلق ومتزمت ووسط حداثي متطور ومنفتح) ونمطين فكريين (فكر يحرص على ترسيخ التقاليد البربرية والإسلامية في المغرب والحفاظ على سيادته وسؤدده وفكر يتعامل مع المغرب كما لو كان بلدا متوحشا ينبغي تطويره وتمدينه وإعماره). ولقد لعبت يطو دورا كبيرا في إبراز إيجابيات المعمر الفرنسي في الأوساط الشعبية، ومقاومة الأباطيل والأكاذيب التي يتناقلها الناس عن الفرنسيين (يختطفون النساء لنقلهن إلى بلادهم/يمارسون الجنس كالكلاب/ يغرسون حقنة في أيادي الأطفال بهدف تمريضهم وإضعافهم انظرص106). وما يبين أن خطابها قد أصاب شَغاف قلوب محبيها هو اضطلاعهم بدفن جثمانها في ضريح أو مزار للتبرك به وحفز الناس على إعادة الاعتبار إلى دورها البطولي في قبائل زيان البربرية.

6-**مسالك الحرب والحب**(16).

يسرد جندي فرنسي مارتان وقائع معركة الهري على زملائه للحيثيات الآتية: تذكير الفرنسيين ببطولات أسلافهم في منطقة بربرية نائية، واعتبار تقدم الجيوش الفرنسية نحو المغرب الأوسط من أجمل صفحات الملاحم الفرنسية في المناطق البربرية، واستخلاص العبر اللازمة من الهزيمة التي مني بها الفرنسيون في معركة الهري سنة 1914.

فبعد أن احتل ليوطي "المغرب النافع" كرس جهده لبسط نفوذه على الأطلس المتوسط سعيا إلى دحر العصاة والمتمردين البرابرة من جهة ومد الجسور البرية بين مراكش وفاس من ناحية ثانية. أسند مهمة مواجهة موحى وحمو الزياني إلى الكولونيل هنريس الذي حاول، في البداية، إغراء غريمه وإمالته. وبعد أن تعذر عليه ذلك قرر شن حرب ضروس عليه، وهو ما أسفر عن احتلال خنيفرة.اضطر موحى، إثر اشتداد الحرب عليه من كل جانب، إلى تغيير استراتجية مقاومته. أخلى مدينة خنيفرة من السكان، ولجأ إلى الجبال. وما أن علم الفرنسيون بوجوده في قرية الهري التي تبعد خمسة عشر كلمترا عن خنيفرة حتى سارعوا إلى مباغتة أتباع موحى وتطويق المدينة، وكان ذلك ليلة13 نونبر 1914.

ورغم حجم الغارة (ما يربو على 1300 جنديا) وعتادها(وفرة المدافع والذخيرة) وتوقيتها (الثالثة صباحا) استطاع القائد موحى أن يخرج منتصرا، ويحول القرية برمتها إلى مقبرة لقوات الاحتلال. وقد تكبد الجيش الفرنسي في هذه المعركة خسارة فادحة في العتاد والأرواح. ويعترف السارد بمقتل 613 شخصا. ويتوزعون حسب رتبهم أوانتمائهم القطري إلى ما يلي: 33 ضابطا و200 جنديا و218 من القوات الجزائرية والتونسية، و37 مغربيا و125 سنغاليا(17).

ومن خلال الرواية نلاحظ ما يلي:

أ-رغم اعتراف السارد بهزيمة فرنسا في معركة الهري، فهو يعترف بقمية الملاحم الفرنسية في المناطق البربرية، ويقر بدور الجيوش في احتلال مدينة خنيفرة وإحكام السيطرة عليها.

ب-يقدم السارد صورا مشوهة عن القائد موحى وحمو الزياني.فهو يتفنن بوصفه بأقذع المواصفات للحط من شأنه وشأوه. "إنه طاغية زيان الذي وحد تحت إمرته القبائل البربرية لمقاومتنا" ص250."أضحت إرادته العاتية ماكرة. يقتل الناس ببرودة دم في السر والعلانية. أصبح، مع مر السنين، فظا" ص113. "يجهل كل شيء عن فرنسا، لا يعلم شيئا عن جهدنا الاقتصادي. لا يدري بكون فرنسا قوة لا تقهر. لم ير في فرنسا، خلال سنوات، إلا قبائل شبيهة بالقبائل المغربية، لكن تختلف الأولى عن الثانية بغناها ووفرة مدافعها لبسط نفوذها على المناطق التي يحكمها". ص126.

ج-وبالمقابل يقدم السارد نظرة إيجابية عن الفرنسيين. "الفرنسي، مهما كان أصل المُستَمعرين، لا يكن لهم أدنى احتقار، ولا يصدر حكما مسبقا عنهم" ص210. "نلاحظ أن العلاقة بين الضباط الفرنسيين والمحاربين الأهالي (أكانوا جنودا أم كوم goumiers(18)أم متطوعين) مشوبة بالاحترام المتبادل"ص201."حسب التقليد الفرنسي، لما تنتهي الحرب لا يتعامل مع المنافس بوصفه عدوا"ص 218.

خلاصات عامة:

1-يعلي السارد من الجنس الفرنسي لكونه، في نظره، مجبولا على المحبة والتقدم والصدق والسلام. في حين ينتقص من قيمة الجنس العربي الذي يقترن لديه بكل المواصفات المستبشعة، من توحش وكذب واندفاع وعنف. ويرجع أسباب همجية المغاربة إلى طبيعة جنسهم وأرومتهم، وإلى نمط عيشهم وجدب أرضهم. ويورد هذه المفارقات لتكريس السياسة الاستعمارية في المغرب، وتعليل مساعيها الرامية إلى قلب التربة لاستنبات قيم جديدة، وبث الروح في النسيج الاجتماعي والاقتصادي المتقادم والمتهالك. إن هذا التصور الاستعلائي والمتعسف يبرئ ذمة السارق ويحمل المسؤولية إلى صاحب الدار لكونه، في غفلة منه، هيأ الشروط اللازمة ليُسرق متاعه بالدقة والنجاعة المتوخيين. إن مثل هذا المنطق الاختزالي هو الذي تحكم في تثبيت السياسة الاستعمارية ودعمها بدعوى أن كل ما كان في المغرب، إبان الحملات الاستعمارية، يستدعي بالضرورة قوة أجنبية لتمدينه وإصلاحه وتحسين المستوى المعيشي والفكري لساكنته.

2-يمكن أن يُجنس هذا الصنف من الروايات ضمن رواية الأطروحة التي تعرفها سوزان روبان سليمان على النحو الآتي : "رواية واقعة (مشيدة على جمالية احتمال الواقع والتمثيل) تتميز لدى القارئ بوصفها حمّالة لمعلومات تنزع إلى التدليل على حقيقة مذهب سياسي أو فلسفي أو علمي أو ديني"(19). وقد استند موريس لوغلاي في تدليله على الأطروحة الاستعمارية إلى ما يلي:

-راهن على الفعل اللغوي التكليمي (perlocutoire) لإحداث الأثر المرغوب فيه في ذهن المتلقي وإقناعه بسداد طرحه الاستعماري وفائدته وجدواه.

-حفز بعض الشخصيات المغربية المشبعة ب"الأفكار الجديدة" (على نحو يطو وميلود وعمر وعبد الكريم والجميل وغيرهم) على تَعرُّف "كنه حقيقتها"، والانخراط في حياة مغايرة تتحكم فيها "قيم ومبادئ جديدة". إن حياتها، بحكم سوغها للسياسة الاستعمارية، أصبحت منتظمة ومشروطة وفق حقيقة مغايرة لما اعتادته وتربت وترعرعت عليه. فهي تعلمت أشياء جديدة، واكتشفت ذاتها، وتدرجت من المجهول إلى المعلوم. وهكذا يحق أن ندرج الرواية ضمن" رواية التعلم" وذلك لكون صاحبها حث الشخصيات، بحكم ميله الإيديولوجي، على تعلم أفكار جديدة لامتحان قدراتها على الانخراط في "الحياة الجديدة" ونبذ "الحياة التقليدية" التي تحبط، في نظر السارد، عزيمة الشعب المغربي على "التحرر" والتقدم".

–تنتظم الرواية وفق بنية صراعية وتصادمية يتجاذبها طرفان متناقضان: المعمر الذي يسعى بعد إحكام السيطرة على السهول إلى بسط نفوذه على جبال الأطلس، ويتطلع إلى تلقين المغاربة "أفكارا وقيما جديدة" بدعوى أنهم في مسيس الحاجة إليها لكسب رهان "التقدم والازدهار والانفتاح". وبالمقابل، يصر المقاومون المغاربة، رغم ضعف الإمكانات وتقادم الأسلحة، على الدفاع عن بلادهم حفاظا على سؤدده وسيادته وهويته.

3-تعتري الذاكرة البشرية جراح كثيرة من جراء الحروب والفتن التي نشبت بين القبائل والأمم على مر العصور. وهكذا أصبحت الذاكرة المشتركة "أرشيفا يختزن الجراح الرمزية التي تستدعي تضميدها"(20). فما يعد مجدا وفخرا بالنسبة لطرف يعد خزيا وإذلالا للطرف الآخر. "وكل احتفاء بحدث يقابله مقت وازدراء في الجهة الأخرى"(21). وفي هذا السياق، فما تعتبره فرنسا كارثة إثر هزيمتها في معركة الهري يعده المغاربة مفخرة تاريخية. وما يعتبره الفرنسيون ملحمة فرنسية في القبائل البربرية يبعث على الخزي والصَّغار لدى الطرف المناوئ. إن هذه الجراح الحقيقية والرمزية تستدعي من الشعوب تضميدها سعيا إلى تحقيق ما يلي:

–ينبغي عدم تسخير الذاكرة لأهداف إيديولوجية أو عنصرية، وذلك تفاديا للإفراط أو التفريط الذي يتولد عنهما التركيز على حدث ونسيان آخر من جهة أو تقديم صور مشوهة عن الآخر بوصفه مصدرا للشرور والرذائل من جهة أخرى. وهو ما يفوت على الأجيال الصاعدة فهم حقيقة بعض الوقائع التاريخية بتجرد ونزاهة، ويؤجج لديها مشاعر الكراهية والعنف بدعوى البحث عن الهوية.

–عوض التصادم مع الآخر لكونه يشكل تهديدا للهوية يجب تعزيز المصالحة معه ومع الذات. وهذا من شأنه أن يعزز الوئام بين الشعوب، ويحفزها على تصحيح كثير من الرواسم والخطاطات التي تشكل عائقا لتقارب الشعوب وتعاونها فيما يخدم مصالحها المشتركة.

———————

هوامش

1- Jean-Marc Moura : L'Europe littéraire et l'ailleurs, PUF 1988, pp 109-110.

2- Michel Beniamino: La francophonie littéraire Essai pour un théorie ,L'Harmattan , Paris L'Harmattan Inc Montréal Canada , 1999, p 173.

ومن مميزات الأدب الاستعماري: أنه مكتوب من لدن أوروبي ولد في المستعمرة أو عاش فيها مدة طويلة، ويتسم بالحقيقة والاختراق، ويدافع عن السياسة الاستعمارية (فن الدعاية)، ويعتبر مدرسة للحيوية والعمل. انظر في هذا الصدد:

Jean-Marc Moura : " littérature coloniale et exotisme Examen d'une opposition de la théorie littéraire coloniale", in Regards sur les littératures coloniales Afrique francophone : Découverte, dirigé par Jean- François Durand tome I , ,L'Harmattan , Paris L'Harmattan Inc Montréal Canada 1999,pp 21-25.

3- الظهير البربري قانون أصدره الاحتلال الفرنسي للمغرب في 17 ذي الحجة 1340 هـ الموافق ل 16 مايو 1930 م. ونص هذا الظهير على جعل إدارة المنطقة البربرية تحت سلطة محاكم خاصة تستند إلى قوانين و أعراف محلية فيما تبقى المناطق العربية تحت سلطة المخزن والسلطان المغربي. وأنشئت محاكم على أساس العرف والعادة المحلية للبرابرة، وإحلال قانون العقوبات الفرنسي محل قانون العقوبات الشريفي المستند إلى الشريعة الإسلامية.

4-ITTO Récit Marocain d'amour et de bataille, Plon-Nourrit, Paris 1923.
5-Les sentiers de la guerre et de l'amour, Récits Marocains, édition Berger-Levrault,1930.
6-Le chat aux oreilles percées,Plon-Nourrit, 1923.
7-Badda Fille berbère Autres récits marocains, Plon-Nourrit, 1924.
8-La mort de Rogui, Récit marocain , Berger-Levrault,
9-Récits marocains de la plaine et des monts , Berger-Levrault,1926.
10-Les pasteurs, illustrés par Jean Hainault, Berger-Levrault , 1929.
11-Jean-Marie Schaeffer : " Notes sur les préfaces philosophiques" in Poétique n°69, Seuil,1987,p40.
12-Maurice Le Glay: Le Chat aux oreilles percées, Histoire marocaine, Librairie Plon Paris,1922.
13-Hétérodiégétique.
14-Homodiégétique.
15-Maurice Le Glay: Itto Récit marocain d'amour et de Bataille, Librairie Plon Paris, 1923.
16-Maurice Le Glay: Les sentiers de la guerre et de l'amour Récit marocain, édition Berger-Levrault, Paris 1930.
17- موريس لوغلاي: مسالك الحرب والحب، م.سا ص 249. 18-جنود برابرة في الجيش الفرنسي.
19-Susan Rubin Suleiman: Le roman à thèse ou l'autorité fictive,PUF,1983,p 14.
20-Paul Ricœur : La mémoire, l'histoire et l'oubli, éd Seuil,2000,p96.
21-Ibid p 96.

صدر للأستاذ محمد الداهي